مجلة دراسات العالم الإسلامي، ٥-١&٢ (فبراير ٢٠١٢)، ص ٤٤-٦١
Kyoto Bulletin of Islamic Area Studies, 5-1&2 (February 2012), pp. 44–61

الكواكبي بين إقامة الخلافة العربية وإقامة الدولة المدنية

جيونئيتشي هيرانو*

مقدمة:

الآن وبالتحديد في عام ١٤٣٢ (هـ) أواخر عام ٢٠١١ (م)، يشهد العالم العربي الإسلامي لحظة تاريخية. فقد رددت الشعوب العربية شعارات كثيرة منها «الديمقراطية»، «الدولة المدنية»، «الكرامة الإنسانية»، و«سلمية»، وأطاحوا بالحكومات المستبدة الديكتاتورية بأيديهم. هذه الحركة السياسية الاجتماعية العظيمة بدأت من تونس ومرت بمصر ثم ليبيا والآن في اليمن وسوريا. وبدون شك قد فتح العالم العربي الإسلامي المعاصر صفحة جديدة في تاريخه الطويل.

إذا نظرنا إلى تراث التغيير الداخلي والثورة في العالم العربي الإسلامي، فسنجد نفس التجربة في العصر الحديث، أي من منتصف القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين تحت سيطرة الدولة العثمانية. هذه التجربة أيضا بدأت من تونس (إعلان الدستور في عام ١٨٦١) وانتشرت روح الإصلاح الداخلي في مصر والسودان وليبيا والشام.

ولد «عبد الرحمن الكواكبي» في بلاد الشام في عام ١٨٤٩، وسرعان ما أصبح أشهر المصلحين في العالم العربي الإسلامي. يركز هذا المقال على هذه الشخصية ويلخص مضمون كتابيه، «أم القرى» و«طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»، ويحاول الاستفادة من تجربة الإصلاح الداخلي في العالم العربي الإسلامي في العصر الحديث.

دراسات سابقة عن عبد الرحمن الكواكبي:

بتناول الدراسات السابقة عن عبد الرحمن الكواكبي من منتصف القرن العشرين، نجد أن عندما تيار الفكر الإسلامي أصبح التيار الأكثر انتشارا على المستويين السياسي والثقافي في منطقة الشرق الأوسط خلال سبعينات وثمنينات ذلك القرن، ويعتبر الكواكبي من أحد المفكرين الذي حاولوا أن يدافعوا عن قيمة الإسلام في منتصف القرن التاسع عشر في العالم العربي والإسلامي [Raz 1996: 185].

وأبدى محمد عمارة تقديره لهذا التيار. إذا قارننا الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي والتي نشرها محمد عمارة في عام ١٩٧٠ بالأعمال الكاملة التي أعاد طبعتها في عام ١٩٨٤، نجد أن عنوانها غيرت إلى «عبد الرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومجدد الإسلام» وأضيفت بعنوان فرعي غير موجود في الأعمال السابقة الذي يؤكد على الإسلام على الرغم من نفس الشكل والمضمون [عمارة ١٩٨٤]. وإضافة إلى ذلك، وكما يبين راز، يلبس الكواكبي ثوبا عربيا تاريخيا في طبعة ١٩٧٠ من جانب، أنه يلف عمامة التي تشير إلى القائد المسلم الديني في طبعة ١٩٨٤ من جانب آخر، علاوة على ذلك، اشادة بذكر قوم العرب في غلاف الطبعة ١٩٧٠ استبدلت بصورة معبد الكعبة في المكة المكرمة في طبعة ١٩٨٤ [Raz 1996 : 184–185]. ووفقا لفوناتشو، بدأ يسمى بـ«إمام الكواكبي» من ذلك الوقت [Funatsu 2006: 21]. في الواقع، علاوة على مثل محمد عمارة، بدأ تكثر دراسات عن الكواكبي التي تركز على جانبه الإسلام خلال سبعينات وثمنينات من منتصف القرن العشرين.

* باحث متخصص، الجمعية اليابانية لتعزيز البحوث العلمية / جامعة تشيبا

يقول غسان العطية إن الغاية الرئيسية للكواكبي كانت وحدة المسلمين كلهم، واحتاج الكواكبي إلى الإسلام باعتباره القوة الكبرى للنهضة [العطية ١٩٧٠: ٢٦]. يعتبر أسعد السحمراني الكواكبي أقدم وأهم المصلحين المسلمين في ذلك الوقت [السحمراني ١٩٨٤]، ويصر سمير أبو حمدان أن الكواكبي اعتقد أن نور النهضة متولد من الإسلام [أبو حمدان ١٩٩٢: الفصل ٢]، ويقول نزيه كبارة إن الكواكبي مصلح من المصلحين المسلمين القائدين في ذلك الوقت ويؤكد أنه، مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، أعاد النظر إلى تراث السلف كمبنى للإصلاح [كبارة ١٩٩٤: ١٠٨-١٠٩].

من جانب آخر، كان تيار الفكر الكبير الآخر موجود في منطقة الشرق الأوسط التي شهدت النهضة الإسلامية من منتصف القرن العشرين، أي العلمانية. وفقا لراز، عنى هذا التيار العلماني برد المفكرين العرب الذين خافوا من توسعة التيار الإسلامي في العالم العربي [Raz 1996: 185]، ومتأثر بتيار الفكر هذا، بدأ بعض الباحثين يركزون على جانب العلماني للفكر الكواكبي.

يقول جان داية إن الكواكبي أصر على العلمانية وعلى التفريق بين الدين والدولة [داية ١٩٨٨: ١٨-١٩]، ويعتبر نربرت تابيرو الكواكبي بمفكر مسلم مشهور مثل محمد عبده من جانب، يقول إن الكواكبي تصوّر التفريق بين الروح (spirituel) والزمن (temporel) وإقامة الشورى الدستورية الديمقراطية في مجال الزمن وقصد إلى العلمانية (laïcité de l'État) من جانب آخر [Tapiéro 1956: 106]. في هذا السياق، يشير سعد زغلول الكواكبي، وهو حفيد الكواكبي، أن جده لم يعرف تمييزا عميقا بين المسلمين والمسيحيين، ولا يعرف زغلول الكواكبي نفسه تمييزا خاصا بين جده والمسيحيين مثل بترس بستاني في عصر النهضة العربية ويشير أنه ليس هناك اختلاف كبير بين الذين قاموا بالإصلاح والتحديث في العالم العربي [الكواكبي ١٩٩٨: ٧-١٥].

وفيما يلي، يحقق كتابي عبد الرحمن الكواكبي، «أم القرى» و«طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» ويبحث عن الأصول والخلفية التي نتجت الدراسات السابقة من منتصف القرن العشرين عنها.

عبد الرحمن الكواكبي و«أم القرى»:

كتابه الأول، أي «أم القرى»، يروي اثني عشر اجتماعا خياليا لعدد من سراة (نجباء) الإسلام الخياليين عقدت في مكة المكرمة خلال أسبوعين في موسم أداء فريضة الحج في أوائل محرم في عام ١٣١٦ (هـ) أواخر ١٨٩٩ (م)، ويذكر فيه محتويات الاجتماعات كلها بدقة وإجمال. ويظهر الكواكبي في صورة السيد الفراتي ككاتب منتخب للجلسات في كل اجتماع، و هذا الاجتماع يسمى بـ «جمعية أم القرى» وأعضائه من سراة الإسلام هم كما يلي:

الاسم الاستعار المندوب	المدينة التي جاء منها	الوطن الذي يمثل المسلمين فيه
السيد الفراتي	حلب	حلب
الفاضل الشامي	دمشق	الشام
البليغ القدسي	القدس	فلسطين
الكامل الاسكندري	الاسكندرية	مصر
العلامة المصري	القاهرة	مصر
المحدث اليمني	صنعاء	اليمن
الحافظ البصري	البصرة	العراق

الاسم الاستعار المندوب	المدينة التي جاء منها	الوطن الذي يمثل المسلمين فيه
العالم النجدي	حائل	نجد
المحقق المدني	المدينة	المدينة
الاستاذ المكي	مكة	مكة
الحكيم التونسي	تونس	تونس
المرشد الفاسي	فاس	مراكش
السعيد الانكليزي	ليفربول	انجلترا
المولى الرومي	القسطنطينية	تركيا
الرياضي الكردي	كردستان	كردستان
المجتهد التبريزي	تبريز	فارس
العارف التاتاري	بغجة سراي	بلاد التاتار الشمالية
الخطيب القازاني	قازان	كازاكستان
المدقق التركي	كشغر	الموطن الاصلي للاتراك بوسط آسيا
الفقيه الافغاني	كابل	افغانستان
الصاحب الهندي	دلهي	الهند
الشيخ السندي	كلكتا	الهند
الامام الصيني	بكين	الصين

المصدر: [عمارة ١٩٧٥: ٣٩]

وسراة الإسلام هؤلاء يتناولون بالمناقشة موضوعا واحدًا وهو: سبب انحطاط الأمة وما هو دواؤه؟

افتتح الاجتماع الأول في يوم الاثنين الخامس عشر من ذي القعدة سنة ١٣١٦ (هـ) وجمعية أم القرى تناقش أربعة مقاصد أساسية وبرنامج المسائل الرئيسية التي تدور حولها مذاكرات الجمعية. أما المقاصد الأساسية الأربعة، فهي ١ بيان الحالة الحاضرة ووصف أعراضها بوجه عام وصفا بديعا يفيد التأثر ويدعو إلى التدبر، ٢ بيان أن سبب الخلل النازل هو الجهل الشامل، بيان إجمال وتلميح، مع أن المقام يقتضي عدم الاحتشام من التفصيل و التشريح، ٣ إنذار الأمة بسوء العاقبة المحدقة بها إنذارًا هائلا تطير منه النفوس، مع أن الحال الواقع لا تغني فيه النذر، و٤ توجيه اللوم والتبعة على الأمراء والعلماء والكافة لتقاعدهم عن استعمال قوة الاتفاق على النهضة، مع أن الاتفاق بينهم متعذر لا متعسر [الكواكبي ١٩٧٥: ٢٤٠].

وعند ختام هذا الاجتماع، قام رئيس الجلسة بإعلان المسائل الرئيسية، وهي عشر مسائل: موضع الداء، أعراض الداء وجراثيم الداء وما هو الدواء؟، ما هي وسائل استعمال الدواء؟، ما هي الإسلامية وكيف يكون التدين بالإسلامية؟، ما هو الشرك الخفي؟، كيف تُقاوم البدع؟، وتحرير قانون لتأسيس جمعية تعليمية [الكواكبي ١٩٧٥: ٢٤٤]. وبالتالي من الاجتماع الثاني إلى الحادي عشر، قامت الجمعية بمناقشة هذه المسائل كما يبين الجدول التالي:

الاجتماع الأول	الاجتماع الثاني	الاجتماع الثالث	الاجتماع الرابع	الاجتماع الخامس	الاجتماع السادس	الاجتماع السابع	الاجتماع الثامن	الاجتماع من التاسع إلى الحادي عشر
صورة المذاكرات	عموم الفتور والتخلف جميع أنحاء العالم الإسلامي وكل الجاليات الإسلامية	دور الحكومات، العلماء، والقضاة الجهلاء في الانحطاط	الدين، والإسلام، والتوحيد	تشكيل لجنة لوضع مسودة قانون الجمعية	الطرق الصوفية في أواسط آسيا	تخليص أسباب الفتور: الدينية، والسياسية، والأخلاقية	أسباب شتى لفتور المسلمين: انعدام المرشدين القدوة، العزوف عن الاتقان، الآثار المترتبة على جهل المرأة، الشباب وتقليد الغرب تقليدا أعمى، وفي الشكليات، آثار الصراع بين الأجيال	فيها جرت المذاكرات حول قانون الجمعية
تاريخ انحطاط المسلمين وبوادر اليقظة الحديثة	مقارنة المسلمين بسواهم	عداء الأمراء للشورى	علاقة التوحيد بالحرية	حاجة الغرب إلى الإسلام	تاريخ التصوف	حالة الدولة العثمانية وعلاقتها ودورها في انحطاط المسلمين		
الاكتئام	لكل إنسان دين يتدين به	إهمال العلوم الحيوية	المصادر التي يأتي منها الشرك إلى العقيدة، تعظيم القبور	الاستدلال والاستهداء بالمصادر الإسلامية الأولى	حوار بين عقيدتين: عقيدة مسلمة مقلدة محافظة وعقيدة مستنيرة مجتهدة تمثل منطق الاستشراق والمستشرقين الذين أسلموا	أثر المركزية العثمانية ودور اللامركزية		
الرجوع إلى مذهب السلف	عقيدة الجبر والجبرية	انعدام الجمعيات والتنظيمات	سلوك المتصوفة المعاصرين	حالة العلم الديني في اليمن وشبه الجزيرة العربية	الاجتهاد والتقليد عند أصحاب مذهب جعفر الصادق بايران	الموقف العثماني من العرب ودور العرب في النهضة		
الإسلامية والجزيرة العربية	زهد الصوفية	الأصول الاشتراكية للإسلام	دور التشدد في الدين كأحد الدوافع للتحلل منه عن طريق التصوف المعاصر	الاجتهاد والتقليد	علاقة مذهب الأمام جعفر بالمذاهب الفقهية الأخرى			

الاجتماع الأول	الاجتماع الثاني	الاجتماع الثالث	الاجتماع الرابع	الاجتماع الخامس	الاجتماع السادس	الاجتماع السابع	الاجتماع الثامن	الاجتماع من التاسع الى الحادي عشر
الأمل في النهضة والتغيير	الانقلاب الذي حدث لسياسة المسلمين الأولين	دور الاجتماعات والمذاكرات في التدريب على الديمقراطية	المذهب الشافعي وعلاقته بالطرق الصوفية					
توفر عناصر النجاح	أخلاق الجندية وأثرها	ظهور بصمات الشرك في العقيدة	مكانة الدين في شبه الجزيرة العربية					
برنامج مفاوضات الجمعية في اجتماعات دورتها هذه	الأمراء والاستبداد والحرية							
	تفكك الأواصر الإسلامية							
	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودوره							
	الاحتساب							
	طاعة أولي الأمر							
	عدل الحكام							
	مباحث في أسباب الفتور							

المصدر: [عمارة ١٩٧٥: ٤١٦-٤١٨]

تم افتتاح الاجتماع الثاني عشر في يوم الاثنين التاسع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣١٧ (هـ). ونستطيع تلخيص مضمون الاجتماعات كلها كالآتي:

- المسلمون في حالة فتور مستحكم عام
- يجب تدارك هذا الفتور سريعا، وإلا فتنحل عصبية المسلمين كليًا
- سبب الفتور تهاون الحكام، ثم العلماء، ثم الأمراء
- جرثومة الداء الجهل المطلق
- أضر فروع الجهل: الجهل في الدين
- الدواء هو، أولا: تنوير الأفكار بالتعليم، ثانيا: إيجاد شوق للترقي في رؤوس الناشئة
- وسيلة المداواة عقد الجمعيات التعليمية والقانونية
- المكلفون بالتدبير هم حكماء ونجباء الأمة من السراة والعلماء
- الكفاءة لإزالة الفتور بالتدريج موجودة في العرب خاصة
- يلزم تشكيل جمعية ذات مكانة ونفوذ في دائرة القانون الآتي البيان باسم «جمعية تعليم الموحدين» [الكواكبي ١٩٧٥: ٣٣٥]

كان الاجتماع السابع أهم الاجتماعات من بين الاجتماعات كلها لأنه يخصص أسباب انحطاط الأمة الإسلامية تخصيصا وهي: أسباب دينية وأسباب سياسية وأسباب أخلاقية، ويضاف إلى ذلك الأوضاع السياسية والإدارية للدولة العثمانية وأسباب أخرى. الجدول التالي يبين أسباب الانحطاط:

الأسباب الدينية	الأسباب السياسية	الأسباب الأخلاقية	الأوضاع السياسية والإدارية للدولة العثمانية	أسباب أخرى
تأثير عقيدة الجبر في أفكار الأمة	السياسة المطلقة من السيطرة والمسئولية	الاستغراق في الجهل والارتياح إليه	توحيد قوانين الإدارة والعقوبات، مع اختلاف طبائع أطراف المملكة واختلاف الأهالي في الأجناس والعادات	عدم تطابق الأخلاق بين الرعية والرعاة
تأثير المزهدات في السعي والعمل وزينة الحياة	تفرق الأمة إلى عصبيات وأحزاب سياسية	استيلاء اليأس من اللحاق بالفائزين في الدين والدنيا	تنويع القوانين الحقوقية، وتشويش القضاء في الأحوال المتماثلة	الغرارة، أي الغفلة عن ترتيب شؤون الحياة
تأثير فتن الجدل في العقائد الدينية	حرمان الأمة من حرية القول والعمل، وفقدانها الأمن والأمل	الإخلاد إلى الخمول ترويحا للنفس	التمسك بأصول الإدارة المركزية مع بعد الأطراف عن العاصمة، وعدم وقوف رؤساء الأدارة في المركز على أحوال تلك الأطراف المتباعدة وخصائص سكانها	الغرارة عن لزوم توزيع الأعمال والأوقات

الأسباب الدينية	الأسباب السياسية	الأسباب الأخلاقية	الأوضاع السياسية والإدارية للدولة العثمانية	أسباب أخرى
الاسترسال للتخالف والتفرق في الدين	فقد العدل والتساوي في الحقوق بين طبقات الأمة	فقد التناصح وترك البغض في الله	التزام أصول عدم توجيه المسئولية على رؤساء الإدارة والولاة عن أعمالهم مطلقا	الغرارة عن الإذعان للاتقان
الذهول عن سماحة الدين وسهولة التدين به	ميل الأمراء، طبعا للعلماء المدلسين وجهلة المتصوفين	انحلال الرابطة الدينية الاحتسابية	تشويش الإدارة بعدم الالتفات لتوحيد الاخلاق والمسالك في الوزراء والولاة والقواد، مع اضطرار الدولة لاتخاذهم من جميع الاجناس والاقوام الموجودين في المملكة بقصد استرضاء الكل	الغرارة عن موازنة القوة والاستعداد
تشديد الفقهاء المتأخرين في الدين خلافا للسلف	حرمان العلماء العاملين وطلاب العلم من الرزق والتكريم	فساد التعليم والوعظ والخطابة والإرشاد	التزام المخالفة الجنسية في استخدام العمال بقصد تعسر التفاهم بين العمال والأهالي، وتعذر الامتزاج بينهم، لتأمن الإدارة غائلة الاتفاق عليها	ترك الاعتناء بتعليم النساء
تشويش أفكار الأمة بكثرة تخالف الآراء في فروع أحكام الدين	اعتبار العلم عطية يحسن بها الأمراء على الاخصاء، وتفويض خدمة الدين للجهلاء	فقد التربية الدينية والأخلاقية	التزام تفويض الإمارات المختصة عادة ببعض البيوت، كإمارة مكة إمارة العشائر الضخمة في الحجاز والعراق والفرات لمن لا يحسن إدارتها، لأجل أن يكون الأمير منفورًا ممن ولي عليهم مكروهًا عندهم فلا يتفقون معه ضد الدولة	عدم الالتفات للكفاءة في الزوجات
فقد إمكان مطابقة القول للعمل في الدين بسبب التخليط والتشديد	قلب موضوع أخذ الأموال من الأغنياء وإعطائها للفقراء	فقد قوة الجمعيات وثمرة دوامها وقيامها	التزام تولية بعض المناصب المختصة ببعض الأصناف كالمشيخة الإسلامية، والسر عسكرية لمن يكون منفورا في صنفه من العلماء او الجند، لأجل أن لا يتفق الرئيس والمرؤوس على أمر مهم	الخور في الطبيعة، أي سقوط الهمة
إدخال العلماء المدلسين على الدين مقتبسات كتابية وخرافات وبدعا مضرة	تكليف الأمراء القضاة والمفتين أمورا تهدم دينهم	فقد قوة المالية الاشتراكية بسبب التهاون في الزكاة	التمييز الفاحش بين أجناس الرعية في الغنم والغرم	الاعتزال في الحياة والتواكل
تهوين غلاة الصوفية الدين وجعلهم إياه لهوًا ولعبًا	إبعاد الأمراء النبلاء والأحرار وتقريبهم المتملقين والأشرار	ترك الأعمال بسبب ضعف الآمال	التساهل في انتخاب العمال والمأمورين، والإكثار منهم بغير لزوم، وإنما بقصد إعاشة العشيرة والمحاسيب والمتملقين الملحين	
إفساد الدين بتفنن المداجين بمزيدات ومتروكات وتأويلات	مراغمة الأمراء السراة والهداة والتنكيل بهم	إهمال طلب الحقوق العامة جبنا وخوفا من التخاذل	التسامح في المكافاة والمجازاة تهاونا بشئون الإدارة، حسنت أم ساءت، كأن ليس للملك صاحب	

الأسباب الدينية	الأسباب السياسية	الأسباب الأخلاقية	الأوضاع السياسية والإدارية للدولة العثمانية	أسباب أخرى
إدخال المدلسين والمقابرية على العامة كثيرا من الأوهام	فقد قوة الرأي العام بالحجر والتفريق	غلبة التخلق بالتملق تزلفًا وصغارًا	عدم الالتفات لرعاية المقتضيات الدينية، كوضع أنظمة مصادمة للشرع بدون لزوم سياسي مهم، أو مع اللزوم ولكن بدون اعتناء بتفهيمه للأمة والاعتذار لها، جلبا للقناعة والرضا	
خلع المنجمين والرمالين والسحرة والمشعوذين قلوب المسلمين بالمرهبات	حماقة أكثر الأمراء وتمسكهم بالسياسات الخرقاء	تفضيل الارتزاق بالجندية والخدم الأميرية على الصنائع	تضييع حرمة الشرع وقوة القوانين بالتزام عدم اتباعها وتنفيذها، والإصرار على أن تكون الإدارة نظامية اسمًا إرادية فعلا التهاون في مجاراة عادات الأهالي وأخلاقهم ومصالحهم استجلابًا لمحبتهم القلبية فوق طاعتهم الظاهرية	
إيهام الدجالين والمداجين أن في الدين أمورًا سرية وأن العلم حجاب	إصرار أكثر الأمراء على الاستبداد عنادًا واستكبارًا	توهم أن علم الدين قائم في العمائم وفي كل ما سطر في كتاب	الغفلة أو التغافل عن مفتضيات الزمان، ومباراة الجيران، وترقية السكان، بسبب عدم الاهتمام بالمستقبل	
اعتقاد منافاة العلوم الحكمية والعقلية للدين	انغماس الأمراء في الترف ودواعي الشهوات، وبعدهم عن المفاخرة بغير الفخفخة والمال	معاداة العلوم العالية ارتياحا للجهالة والسفالة	الضغط على الأفكار المتنبهة بقصد منع نموها وسموها وإطلاعها على مجاري الإدارة، محاسنها ومعايبها، وإن كان الضغط على النمو الطبيعي عبثا محضا، ويتأتى منه الإغراء والتحفز وينتج عنه الحقد على الإدارة	
تطرق الشرك الصريح أو الخفي إلى عقائد العامة	حصر الاهتمام السياسي بالجباية والجندية فقط	التباعد عن المكاشفات والمفاوضات في الشئون العامة	تمييز الأسافل أصلا وأخلاقًا وعلما وتحكيمهم في الرقاب الحرة وتسليطهم على أصحاب المزايا، وهذا التهاون بشأن ذوي الشئون يستلزم تسفل الإدارة	
تهاون العلماء العاملين في تأييد التوحيد		الذهول عن تطرق الشرك وشآمته	إدارة بيت المال إدارة إطلاق بدون مراقبة، وجزاف بدون موازنة، وإسراف بدون عتاب، واتلاف بدون حساب، حتى صارت المملكة مديونة للأجانب بديون ثقيلة توفي بلادًا ورقابًا ودماءً وحقوقًا	

الأسباب الدينية	الأسباب السياسية	الأسباب الأخلاقية	الأوضاع السياسية والإدارية للدولة العثمانية	أسباب أخرى
الاستسلام للتقليد وترك التبصر والاستهداء			إدارة المصالح المهمة السياسية والملكية بدون استثارة الرعية ولا قبول مناقشة فيها، وإن كانت إدارة مشهودة المضرة في كل حركة وسكون	
التعصب للمذاهب والآراء المتأخرين وهجر النصوص ومسلك السلف			إدارة الملك إدارة مداراة وإسكات للمطلعين على معايبها حذرا من أن ينفثوا ما في الصدور فتعلم العامة حقائق الأمور، والعامة من إذا علموا قالوا وإذا قالوا فعلوا، وهناك الطامة الكبرى	
الغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة وجمية الحج			إدارة السياسية الخارجية بالتزلف والإرضاء والمحاباة بالحقوق والرشوة بالامتيازات والنقود، تبذل الإدارة ذلك للحيران بمقابلة تعاميهم عن المشاهد المؤلمة التخريبية، وصبرهم على الروائح المنتنة الإدارية، ولولا تلك المشاهد والروائح لما وجد الحيران وسيلة للضغط على ما ألقاه الله بينهم من العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة	
العناد على نبذ الحرية الدينية، جهلا بمزيتها				
التزام ما لا يلزم لأجل الاستهداء من الكتاب والسنة				
تكليف المسلم نفسه ما لا يكلفه به الله وتهاونه فيما هو مأمور به				

المصدر: [الكواكبي ١٩٧٥: ٣١٧-٣٢٥]

لاحظت الجمعية أن الأوضاع السياسة والإدارة للدولة العثمانية هي سبب انحطاط الأمة الإسلامية، وبالتالي، الجمعية لم تخف النفور ضد الدولة العثمانية، بالإضافة إلى الأسباب المذكورة أعلاه، كما انتقدت الجمعية الدولة العثمانية بميلها إلى سياسة الاستغراب[1] كما يلي: افتخار العثمانيين بمحافظتهم على غيرة رعاياهم لهم، فلم يسعوا باستتراك رعاياهم، كما أنهم لم يقبلوا أن يستعربوا، والمتأخرون منهم قبلوا أن يتفرنسوا أو يتألمنوا [الكواكبي ١٩٧٥: ٣٢٤]، وتنكر الأتراك أيضا بسبب ميلهم عن الإسلام. فالأتراك لم يخدموا الإسلام بغير إقامة بعض جوامع لولا حظ نفوس ملوكهم بذكر أسمائهم على منابرها لم تقم [الكواكبي

١ استعمل الكاتب هذا المصطلح بمعنى «السياسة الغربية» على غرار «الاستشراق».

١٩٧٥: ٣٢٥]. الجمعية لم تعتبر الدولة العثمانية والأتراك بالفاعل المناسب بإصلاح ونهضة الأمة الإسلامية. إذن، هنا سؤال يطرح نفسه وهو من هو الأنسب لإصلاح ونهضة الأمة الإسلامية؟ وفقا للجمعية، الأنسب لإصلاح ونهضة الأمة الإسلامية هم العرب وتؤكد الجمعية على دور العرب وعلى ميزاتهم ومكانهم في نهضة الأمة، والأسباب كما يلي:

١- الجزيرة: هي مشرق النور الإسلامي.

٢ الجزيرة فيها الكعبة المعظمة.

٣ الجزيرة فيها المسجد النبوي وفيه الروضة المطهرة.

٤ الجزيرة أنسب المواقع لان تكون مركزًا للسياسة الدينية لتوسطها بين أقصى آسيا شرقًا وأقصى إفريقيا غربًا.

٥ الجزيرة أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسية وأديانا ومذاهب.

٦ الجزيرة أبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب.

٧ الجزيرة أفضل الأراضي لان تكون ديار أحرار لبعدها عن الطامعين والمزاحمين نظرًا لفقرها الطبيعي.

٨ عرب الجزيرة: هم مؤسسو الجامعة الإسلامية لظهور الدين فيهم.

٩ عرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلق بالدين لأنه مناسب لطبائعهم الأهلية أكثر من مناسبته لغيرهم.

١٠ عرب الجزيرة أعلم المسلمين بقواعد الدين لأنهم أعرقهم فيه، ومشهود لهم، بأحاديث كثيرة، بالمتانة في الإيمان.

١١ عرب الجزيرة أكثر المسلمين حرصًا على حفظ الدين وتأييده والفخار به، خصوصا والعصبية النبوية لم تزل قائمة بين أظهرهم في الحجاز واليمن وعمان وحضرموت والعراق وافريقيا.

١٢ عرب الجزيرة لم يزل الدين عندهم حنيفا سلفيا بعيدا عن التشديد والتشويش.

١٣ عرب الجزيرة أقوى المسلمين عصبية وأشدهم أنفة لما فيهم من خصائص البدوية.

١٤ عرب الجزيرة أمراؤهم جامعون بين شرف الآباء والأمهات الزوجات، فلم تختل عزتهم.

١٥ عرب الجزيرة أقدم الأمم مدنية بدليلي: سعة لغتهم، وسمو حكمتهم وأدبياتهم.

١٦ عرب الجزيرة أقدم المسلمين على تحمل قشف المعيشة في سبيل مقاصدهم، وأنشطهم على التغرب والسياحات وذلك لبعدهم عن الترف المذل لأهله.

١٧ عرب الجزيرة أحفظ الأقوام على جنسيتهم وعاداتهم، فهم يخالطون ولا يختلطون.

١٨ عرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية على الحرية والاستقلال وإباء الضيم.

١٩ العرب عموما: لغتهم أغنى لغات المسلمين في المعارف، ومصونة بالقرآن الكريم من أن تموت.

٢٠ العرب لغتهم هي اللغة العمومية بين كافة المسلمين البالغ عددهم ٣٠٠ مليون.

٢١ العرب لغتهم هي اللغة الخصوصية لمائة مليون من المسلمين وغير المسلمين.

٢٢ العرب أقدم الأمم اتباعا لأصول تساوي الحقوق وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية.

٢٣ العرب أعرق الأمم في أصول الشورى في الشئون العمومية.

٢٤ العرب أهدى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية.

٢٥ العرب من أحرص الأمم على احترام العهود عزة، واحترام الذمة إنسانية واحترام الجوار شهامة، وبذل المعروف مروءة.

٢٦ العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعًا في الدين وقدوة للمسلمين حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء، فلا يأنفون عن اتباعهم أخيرًا.

[الكواكبي ١٩٧٥: ٣٥٦-٣٥٧]

هذه الأسباب هي التي جعلت «جمعية أم القرى» تعتبر أن العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية ومركز النهضة الإسلامية. وبالتالي، في هذا السياق، عند اختتام الاجتماع الثاني عشر، أعلنت الجمعية عن شروط وعوامد إنشاء الخلافة العربية، كما يلي:

١ إقامة خليفة عربي قرشي مستجمع للشرائط في مكة.

٢ يكون حكم الخليفة، سياسة، مقصورا على الخطة الحجازية، ومربوطا بشورى خاصة حجازية.

٣ الخليفة ينيب عنه من يترأس هيئة شورى عامة إسلامية.

٤ تتشكل هيئة الشورى العامة من نحو مائة عضو منتخبين، مندوبين من قبل جميع السلطنات والإمارات الإسلامية، وتكون وظائفها منحصرة في شؤون السياسة العامة الدينية فقط.

٥ تجتمع الشورى العامة مدة شهرين في كل سنة قبيل موسم الحج.

٦ مركز الشورى العامة يكون مكة عندما يصادف الحج موسم الشتاء، والطائف في موسم الصيف.

٧ تقترع الشورى يوم افتتاح كل اجتماع على انتخاب نائب الرئيس ويعينه الخليفة.

٨ تتعين وظائف الشورى العامة بقانون مخصوص تضعه هي، ويُصدق عليه من قبل السلطنات والإمارات.

٩ ترتبط بيعة الخليفة بشرائط مخصوصة ملائمة للشرع، بناء على أنه إذا تعدى شرطا منها ترتفع بيعته، وفي كل ثلاث سنين يعاد تجديد البيعة.

١٠ انتخاب الخليفة يكون منوطا بهيئة الشورى العامة.

١١ الخليفة يبلغ قرارات الشورى ويراقب تنفيذها.

١٢ الخليفة لا يتداخل في شيء من الشئون السياسية والإدارية في السلطنات والإمارات قطعيا.

١٣ الخليفة يصدق على توليات السلاطين والأمراء التي تجري احتراما للشرع على حسب أصولهم القديمة في وراثاتهم للولاية.

١٤ الخليفة لا يكون تحت أمره قوة عسكرية مطلقا، و يذكر اسمه في الخطبة قبل أسماء السلاطين، ولا يذكر في المسكوكات.

١٥ يناط حفظ الأمن في الخطة الحجازية بقوة عسكرية تتألف من الفين إلى ثلاثة آلاف من جنود مختلطة ترسل من قبل جميع السلطنات والإمارات.

١٦ تكون القيادة العامة للجنود الحجازية منوطة بقائد من قبل إحدى الإمارات الصغيرة.

١٧ يكون القائد تحت إمرة هيئة الشورى مدة انعقادها.

١٨ هيئة الشورى تكون تحت حماية الجنود المختلطة.

[الكواكبي ١٩٧٥: ٣٦٤-٣٦٥]

وهكذا، فإن الجمعية اقترحت إقامة خلافة عربية قرشية في مكة بشرط إعادة تجديد البيعة من الشورى العامة كل ثلاث سنين وبتحديد السلطة السياسية بمنطقة الحجاز، وألا يكون هناك تداخل بين الشئون السياسية والإدارية في السلطنات والإمارات. وبعبارة أخرى، فإن الجمعية طالبت الأمة بإقامة خلافة عربية «روحية» للنهضة والوحدة الإسلامية.

عبد الرحمن الكواكبي و«تبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»:

ننتقل إلى كتابه الآخر، أي «طبائع استبداد ومصارع الاستعباد»، فموضوعه يتناول العلاقة العامة بين أصل انحطاط الأمة والاستبداد. أولا الكواكبي يفسر أن أصل الانحطاط هو الاستبداد السياسي ولما كان تعريف علم السياسة بأنه «إدارة الشئون المشتركة بمقتضى الحكمة»، وكان بالطبع أول مباحث السياسة وأهمها بحث «الاستبداد» أي التصرف في الشئون المشتركة بمقتضى الهوى [الكواكبي ١٩٧٥: ١٣١]. ويؤكد الكاتب كما يلي:

> وإني أرى أن المتكلم في الاستبداد عليه أن يلاحظ تعريف وتشخيص «ما هو الاستبداد؟ ما سببه؟ ما أعراضه؟ ما سيره؟ ما إنذاره؟ ما دواؤه؟» وكل موضوع من ذلك يحتمل تفصيلات كثيرة، وينطوي على مباحث شتى من أمهاتها: ما هي طبائع الاستبداد؟ لماذا يكون المستبد شديد الخوف؟ لماذا يستولي الجبن على رعية المستبد؟ ما تأثير الاستبداد على الدين؟ على العلم؟ على المجد؟ على المال؟ على الأخلاق؟ على الترقي؟ على التربية؟ على العمران؟ من هم أعوان المستبد؟ هل يتحمل الاستبداد؟ كيف يكون التخلص من الاستبداد؟ بماذا ينبغي استبدال الاستبداد؟ [الكواكبي ١٩٧٥: ١٣٤-١٣٥]

قبل الخوض في هذه المسائل، يشير الكواكبي إلى النتائج التي تستقر عندها أفكار الباحثين في هذا الموضوع، وهي نتائج متحدة المدلول مختلفة التعبير على حسب اختلاف مشارب وأنظار الباحثين، وهي:

يقول المادي: الداء: القوة، والدواء: المقاومة.

يقول السياسي: الداء: استعباد البرية، والدواء: استرداد الحرية.

يقول الحكيم: الداء: القدرة على الاعتساف، والدواء: الاقتدار على الاستنصاف.

يقول الحقوقي: الداء: تغلب السلطة على الشريعة، والدواء: تغليب الشريعة على السلطة.

يقول الرباني: الداء: مشاركة الله في الجبروت، والدواء: توحيد الله حقا.

يقول الأبي: الداء: مد الرقاب للسلاسل، والدواء: الشموخ عن الذل.

يقول المتين: الداء: وجود الرؤساء بلا زمام، والدواء: ربطهم بالقيود الثقال.

يقول الحر: الداء: التعالي على الناس باطلا، والدواء: تذليل المتكبرين.

يقول المفادي: الداء: حب الحياة، والدواء: حب الموت.

[الكواكبي ١٩٧٥: ١٣٥]

نستطيع أن نستنتج أن الكوكبي يحدد «الاستبداد» لغويا على أنه: هو غرور المرء برأيه والأنفة عن قبول النصيحة، أو الاستقلال في الرأي وفي الحقوق المشتركة، ويتناول الاستبداد بمقارنته على النحو التالي. الاستبداد، في اصطلاح السياسيين: هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة، وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى الاصطلاحي فيستعملون في مقام كلمة «استبداد» كلمات: استعباد، واعتساف، وتحكم. وفي مقابلتها كلمات: مساواة، وحس مشترك، وتكافؤ، وسلطة عامة. ويستعملون في مقام صفة «مستبد» كلمات: جبار، وطاغية، وحاكم بأمره، وحاكم مطلق. وفي مقابلة «حكومة مستبدة» كلمات: عادلة، ومسئولة، ومقيدة، ودستورية. ويستعملون في مقام وصف الرعية «المستبد عليهم» كلمات: أسرى، مستصغرين، وبؤساء، ومستنبتين، وفي مقابلتها: أحرار، وأباة، وأحياء، وأعزاء [الكواكبي ١٩٧٥: ١٣٦].

بتحليل ما قد تم ذكره أعلاه، يبين الكواكبي أشكال الحكومة المستبدة وأما صفة الاستبداد فتشمل أيضا الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة أو الوارثة، الحاكم الفرد المقيد المنتخب متى كان غير مسئول، حكومة الجمع ولو منتخبا، لأن الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد وإنما قد يعدله الاختلاف نوعا، وقد يكون عند الاتفاق أضر من استبداد الفرد. ويشمل أيضا الحكومة الدستورية المفرقة فيها بالكلية قوة التشريع عن قوة التنفيذ وعن القوة المراقبة، لأن الاستبداد لا يرتفع ما لم يكن هناك ارتباط في المسئولية فيكون المنفذون مسئولين لدى المشرعين، وهؤلاء مسئولون لدى الأمة، تلك الأمة التي تعرف أنها صاحبة الشأن كله، وتعرف أن تراقب، وأن تتقاضى الحساب [الكواكبي ١٩٧٥: ١٣٦].

إذن، فإن الكواكبي يقول إن من أقبح أنواع الاستبداد استبداد الجهل على العلم، واستبداد النفس على العقل، ويسمى استبداد المرء على نفسه، وذلك أن الله جلت نعمه خلق الإنسان حرا قائده العقل [الكواكبي ١٩٧٥: ١٣٩] كما يبين العلاقة بين المستبد والرعية كما يلي: لا يخفى على المستبد، مهما كان غبيا، أن لا استعباد ولا اعتساف إلا ما دامت الرعية حمقاء تخبط في ظلامة جهل وتيه عماء، فلو كان المستبد طيرا لكان

خفاشا يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل [الكواكبي ١٩٧٥: ١٥٣].

وفقا للكواكبي، فإن المستبد لا يخشى علوم اللغة، تلك العلوم التي بعضها يقوّم اللسان، وأكثرها هزل وهذيان يضيع به الزمان، لا يخاف علم اللغة اذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الألوية. وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد (الآخرة)، المختصة ما بين الإنسان وربه، لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة، وإنما يتلهى بها المتهوسون للعلم، حتى إذا ضاع فيها عمرهم، وامتلأت بها أدمغتهم، وأخذ منهم الغرور ما أخذ، فصاروا لا يرون علما غير علمهم، فحينئذ يأمن المستبد منهم كما يؤمن شر السكران إذا خمر [الكواكبي ١٩٧٥: ١٥٣]. ولكن من ناحية أخرى، ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة، مثل الحكمة النظرية، والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع، والسياسة المدنية، والتاريخ المفصل، والخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تكبر النفوس وتوسع العقول وتعرف الإنسان ما هي حقوقه [الكواكبي ١٩٧٥: ١٥٤]. يبدو أن الكواكبي يظن أن علوم الحياة هذه تعدو على النظام المستبد مباشرة بالمقارنة مع علوم اللغة والدين.[٢]

بالنسبة إلى الكواكبي، فإن الترقي يرتبط بالعلوم نسبيا. أي أن علوم الحياة تمهد الترقي الحيوي، وأما الترقي الحيوي فالكواكبي يقول كما يلي: الترقي الحيوي الذي يتدرج فيه الإنسان بفطرته وهمته، هو أولا: الترقي في الجسم صحة وتلذذا، وثانيا: الترقي في القوة بالعلم والمال، وثالثا: الترقي في النفس بالخصال[٣] والمفاخر، ورابعا: الترقي بالعائلة استئناسا وتعاونا، وخامسا : الترقي بالعشيرة تناصرا عند الطواريء، وسادسا: الترقي بالإنسانية وهذا منتهى الترقي [الكواكبي ١٩٧٥: ١٩٨-١٩٩]. وفقا للكواكبي، فإن العلوم الحياة يشوق الترقي الحيوي ونهاية الترقي الحيوي هي الترقي بالإنسانية.[٤]

وبالتالي وفقا للكواكبي، فإن السبيل الأمثل للترقي في الاستقلال الشخصي يكون في ظل الحكومات العادلة، ويكون هذا باستئمان الحكومة على:

> ١- أمين على السلامة في جسمه وحياته بحراسة الحكومة التي لا تغفل عن محافظته بكل قوتها في حضره وسفره بدون أن يشعر بثقل قيامها عليه. فهي تحيط به إحاطة الهواء، لا

٢ في مكان آخر، الكواكبي يبحث عن العلوم في عصره نظرا للغرب كما يلي: جاء الزمن الأخير ترقى فيه الغرب علمًا فنظامًا فقوةً. وانضم إلى ذلك: أولا: قوة اجتماعه شعوبا كبيرة، ثانيا: قوة البارود، حيث أبطل الشجاعة وجعل العبرة للعدد، ثالثا: قوة كشفه أسرار الكيمياء والميكانيك، رابعا: قوة الفحم الذي أهدته له الطبيعة، خامسا: قوة النشاط بكسره قيود الاستبداد، سادسا: قوة الأمن على عقد الشركات المالية الكبيرة. فاجتمعت هذه القوات فيه وليس عند الشرق ما يقابلها غير الافتخار بالأسلاف، وذلك حجة عليه، والغرور بالدين خلافا للدين، فالمسلمون يقابلون تلك القوات بما يقال عند اليأس وهو «حسبنا الله ونعم الوكيل»، ويخالفون أمر القرآن لهم بأن يعدوا ما استطاعوا من قوة، لا ما استطاعوا من صلاة وصوم [الكواكبي ١٩٧٥: ٢١١].

٣ وفقا للكواكبي، الخصال تنقسم إلى ثلاثة أنواع: الأول: الخصال الحسنة الطبيعية، كالصدق والأمانة والهمة والمدافعة والرحمة، والقبيحة الطبيعية كالرياء والاعتداء والجبانة والقسوة، وهذا القسم تضافرت عليه كل الطبائع والشرائع، والثاني: الخصال الكمالية التي جاءت بها الشرائع الإلهامية كتحسين الإيثار والعفو وتقبيح الزنا والطمع، وهذا القسم يوجد فيه ما لا تدرك كل العقول حكمته أو حكمة تعميمه، فيمتثله المنتسبون للدين احتراما أو خوفا، والثالث: الخصال الاعتيادية وهي ما يكتسبه الإنسان بالوراثة أو بالتربية أو بالألفة، فيستحسن أو يستقبح على حسب أمياله ما لم يضطر إلى التحول عنها [الكواكبي ١٩٧٥: ١٨٢].

٤ وهناك نوع آخر من الترقي يتعلق بالروح وبالكمال، وهو إن الإنسان يحمل نفسا ملهمة بأن لها وراء حياتها هذه حياة أخرى تترقى اليها على سلم العدل والرحمة والحسنات [الكواكبي ١٩٧٥: ١٩٨-١٩٩].

إحاطة السور يلطمه كيفما التفت أو سار.

٢- أمين على الملذات الجسمية والفكرية باعتناء الحكومة في الشؤون العامة، المتعلقة بالترويضات الجسمية والنظرية والعقلية حتى يرى أن الطرقات المسهلة والتزيينات البلدية، والمنتزهات، والمنتديات، والمدارس، والمجامع ونحو ذلك، قد وجدت كلها لأجل ملذاته، ويعتبر مشاركة الناس له فيها لأجل إحسانه، فهو بهذا النظر والاعتبار لا ينقص عن أغنى الناس سعادة.

٣- أمين على الحرية، كأنه خلق وحده على سطح هذه الأرض، فلا يعارضه معارض فيما يخص شخصه من دين وفكر وعمل وأمل.

٤- أمين على النفوذ، كأنه سلطان عزيز فلا ممانع له ولا معاكس في تنفيذ مقاصده النافعة في الأمة التي هو منها.

٥- أمين على المزية، كأنه في أمة يساوي جميع أفرادها منزلة وشرفا وقوة، فلا يفضل هو على أحد ولا يفضل أحد عليه، إلا بمزية سلطان الفضيلة فقط.

٦- أمين على العدل، كأنه هو القابض على ميزان الحقوق فلا يخاف تطفيفا، وهو المثمن فلا يحذر بخسا، وهو المطمئن على أنه إذا استحق أن يكون ملكًا صار ملكًا ، وإذا جنى جناية نال جزاءه لا محالة.

٧- أمين على المال والملك، كأن ما أحرزه بوجهه المشروع قليلًا كان أو كثيرًا، قد خلقه الله لأجله فلا يخاف عليه، كما أنه تقلع عينه إن نظر إلى مال غيره.

٨- أمين على الشرف بضمان القانون، بنصرة الأمة، ببذل الدم، فلا يرى تحقيرًا إلا لدى وجدانه، ولا يعرف طعما لمرارة الذل والهوان [الكواكبي ١٩٧٥: ٢١٣-٢١٤]

ويجب أن تُحترم هذه النقاط الإنسانية، ولذلك فإن الكواكبي يركز على النقطة الأخيرة، أي أمين على الشرف، خصوصا لأن الشرف هو أساس من أسس الحياة الإنسانية.

إذا وفقا للكواكبي، الإنسان يجب أن يؤسس بالمجد والأخلاق، وأما المجد فهو يفسر كهذا: المجد هو المجد، محبب للنفوس، لا تفتأ تسعى وراءه، وترقى مراقيه، وهو ميسر في عهد العدل لكل إنسان على حسب استعداده وهمته، وينحصر تحصيله في زمن الاستبداد بمقاومة الظلم على حسب الإمكان [الكواكبي ١٩٧٥: ١٥٩].[٥] وأما الأخلاق كما يلي: لا تكون الأخلاق أخلاقا ما لم تكن ملكة مطردة على قانون فطري تقتضيه أولا: وظيفة الإنسان نحو نفسه، وثانيا: وظيفته نحو عائلته، وثالثا: وظيفته نحو قومه، ورابعا: وظيفته نحو الإنسانية، وهذا القانون هو ما يسمى عند الناس بالناموس [الكواكبي ١٩٧٥: ١٨٠]. وظيفة الإنسان تنتهي إلى الوظيفة الإنسانية، فالكواكبي يؤكد كما يلي:من أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب ناموس وهو كالحيوان المملوك العنان، يقاد حيث يراد، ويعيش كالريش يهب الريح، لا نظام ولا إرادة؟ وما هي الإرادة؟ هي أم الأخلاق [الكواكبي ١٩٧٥: ١٨٠]. في هذا السياق، خلق من أخلاق، أي الإرادة هي وسيلة

٥ يقابل المجد من حيث مبناه التمجد. وما هو التمجد؟ التمجد خاص بالإدارات المستبدة، وهو القربى من المستبد بالفعل كالأعوان والعمال، أو بالقوة كالملقبين بنحو دوق وبارون، والمخاطبين بنحو رب العزة ورب الصولة، أو الموسومين بالنياشين أو المطوقين بالحمائل، وبتعريف، آخر: التمجد هو أن ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبد ليحرق بها شرف المساواة في الإنسانية [الكواكبي ١٩٧٥: ١٦٠].

المقاومة القوية على الاستبداد أصلا، والكواكبي ينتقد صاحب الأخلاق بموقعه السلبي إلى المستبد وحياة الدنيا ويشوق القيام بتغيير موقعه إلى موقع إيجابي. من الملاحظ أن الكواكبي يؤكد أن القضاء والقدر هما عند الله ما يعلمه ويمضيه، وهما عند الناس السعي والعمل، ويوقن أن كل أثر على ظهر الأرض هو من عمل إخوانه البشر [الكواكبي ١٩٧٥: ٢١١].

وهكذا، فإن الرعية ذو المجد والأخلاق يجب أن تقوم بمقاومة المستبد وكسر قيود الاستبداد. الكواكبي يفسر هذا الأمر كما يلي: رأس الحكمة فيه كسر قيود الاستبداد. وأن يكتب الناشئون على جباههم عشر كلمات وهي:

١- ديني ما أظهر ولا أخفي.

٢- أكون حيث يكون الحق ولا أبالي.

٣- أنا حر وسأموت حرًا.

٤- أنا مستقل لا أتكل على غير نفسي وعقلي.

٥- أنا إنسان الجد والاستقبال لا إنسان الماضي والحكايات.

٦- نفسي ومنفعتي قبل كل شيء.

٧- الحياة كلها تعب لذيذ.

٨- الوقت غال عزيز.

٩- الشرف في العلم فقط.

١٠- أخاف الله لا سواه.

[الكواكبي ١٩٧٥: ٢١١-٢١٢]

بالنظر إلى ما تم ذكره أعلاه، يستند الكواكبي إلى قول المصلح والأديب الإيطالي «فيتريو الفيري» (Vittoria Alfieri)، مبحث السعي في رفع الاستبداد فيقول: ١- الأمة التي لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية، ٢- الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدرج، ٣- يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد. ويؤكد أن هذا قواعد رفع الاستبداد [الكواكبي ١٩٧٥: ٢٢٢]. والكواكبي، مع تقرير شكل الحكومة هو أعظم وأقدم مشكلة في البشر، وهو المعترك الأكبر لأفكار الباحثين [الكواكبي ١٩٧٥: ٢١٧]، يطلب دواء الاستبداد السياسي ودفعه بالشورى الدستورية [الكواكبي ١٩٧٥: ١٣١]. أخيرا، فإن الكواكبي لا يفسر ماهية الشورى الدستورية تفسيرا، عوضا عن ذلك يرجع للمباحث التي يريد طرحها لتدقيق المطالعين وهي:

١- ما هي الأمة؟ أي الشعب؟[٦]

٦ يندرج تحت هذا السؤال التال: هل هي ركام مخلوقات نامية؟، أو جمعية عبيد لمالك متغلب، وظيفتهم الطاعة والانقياد ولو كرها؟، أم هي جمع بينهم روابط دين أو جنس أو لغة، ووطن، وحقوق مشتركة، وجامعة سياسية اختيارية، لكل فرد حق

٢- ما هي الحكومة؟

٣- ما هي الحقوق العمومية؟

٤- التساوي في الحقوق.

٥- الحقوق الشخصية.

٦- نوعية الحكومة.[٧]

٧- ما هي وظائف الحكومة؟

٨- حقوق الحاكمية.

٩- طاعة الأمة للحكومة.

١٠- توزيع التكليفات.

١١- إعداد المنعة.

١٢- المراقبة على الحكومة.[٨]

١٣- حفظ الأمن العام.

١٤- حفظ السلطة في القانون.

١٥- تأمين العدالة القضائية.

١٦- حفظ الدين والآداب.

١٧- تعيين الأعمال بقوانين.

١٨- كيف توضع القوانين.

١٩- ما هو القانون وقوته.

٢٠- توزيع الأعمال والوظائف.

٢١- التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم.

٢٢- الترقي في العلوم والمعارف.

إشهار رأيه فيها توفيقا للقواعد الإسلامية التي هي أسمى وأبلغ قاعدة سياسية وهي: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته؟»

٧ يندرج تحت هذا السؤال التالي: هل الأصلح هي الملكية المطلقة من كل زمام؟، أم الملكية المقيدة؟، وما هي القيود؟ أم الرئاسة الانتخابية الدائمة مع الحياة؟ أو المؤقتة إلى أجل؟ وهل تنال الحاكمية بالوارثة؟ أو العهد؟ أو الغلبة؟. وهل يكون ذلك كما تشاء الصدفة؟ أم مع وجود شرائط الكفاءة؟ وما هي تلك الشرائط؟ وكيف يصير تحقيق وجودها؟ وكيف يراقب استمرارها؟ وكيف تستمر المراقبة عليها؟

٨ يندرج تحت هذا السؤال التالي: هل تكون الحكومة لا تسأل عما تفعل؟ أم يكون للأمة حق السيطرة عليها، لأن الشأن شأنها، فلها أن تنيب عنها وكلاء لهم حق الاطلاع على كل شيء، وتوجيه المسئولية على أي كان، ويكون أهم وظائف النواب حفظ الحقوق الأساسية المقررة للأمة على الحكومة؟

٢٣- التوسيع في الزراعة والصنائع والتجارة.

٢٤- السعي في العمران.

٢٥- السعي في رفع الاستبداد.

[الكواكبي ١٩٧٥: ٢١٨-٢٢٢]

والتساؤل الذي يطرح نفسه الآن هو التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم التالي: هل يجمع بين سلطتين أو ثلاث في شخص واحد؟، أم تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها بإتقان؟، ولا إتقان إلا بالاختصاص، وفي الاختصاص، كما جاء في الحكمة القرآنية: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ (الأحزاب: ٤)، ولذلك لا يجوز الجمع منعا لاستفحال السلطة [الكواكبي ١٩٧٥: ٢٢١]. من الأهم أن الكواكبي هنا يصر على التفريق بين السلطة السياسية والسلطة الدينية بمراجعة التعاليم القرآنية.

وأخيرا، يرجع الكواكبي للعوام أيضا مسئولية مقاومة المستبد، وفقا له، عقب أحوال مخصوصة مهيجة فورية، خصوصا عقب عمل للمستبد يستفز الغضب الفوري، كتعرضه لناموس العرض، يجب على العوام أن يثور غضبهم على المستبد [الكواكبي ١٩٧٥: ٢٢٥].[٩]

خاتمة:

بتلخيص مضمون «أم القرى»، نلاحظ أن الكواكبي يقترح إقامة خلافة عربية «روحية» للنهضة والوحدة الإسلامية. أما مضمون كتاب «تبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»، فإن الكواكبي يطالب بكسر قيود الاستبداد بالشورى الدستورية ويدعو الرعية والعوام أن يقاوموا المستبد بإرادتهم، بمجدهم وبعرضهم وبشرفهم باللين وبالتدرج.

أخيرا، ماذا نستطيع أن ننال من تراث الفكر الكواكبي في التاريخ المعاصر؟ فالمصطلحات الكواكبية كالشورى الدستورية أو شرف الإنسان أو باللين تذكرني بشعارات قد قمت بالتنويه إليها في المقدمة، كالديمقراطية أو الكرامة الإنسانية أو سلمية. نعم، المصطلحات والشعارات هذه تتجه إلى نفس المقصود والغاية، لذا نستطيع أن نقول إن «الربيع العربي» يمثل روح الكواكبي، وأن الكواكبي هو بمثابة الأب الروحي لـ «الربيع العربي». الكواكبي يصر على إقامة خلافة عربية وإقامة الدولة المدنية إلى حد ما في نفس الوقت في العصر الحديث.

مراجع ومصادر:

أحمد أمين. زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨.

أسعد السحرماني. الاستبداد والاستعمار وطرق مواجهتهما عند الكواكبي والإبراهيمي، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٤.

٩ وفي زمان آخر: عقب مشهد دموي مؤلم يوقعه المستبد على مظلوم يريد الانتقام لناموسه، عقب حرب يخرج منها المستبد مغلوبا، ولا يتمكن من إلصاق عار الغلب بخيانة القواد، عقب تظاهر المستبد بإهانة الدين إهانة مصحوبة باستهزاء يستلزم حدة العوام، عقب تضييق شديد عام مقاضاة لمال كثير لا يتيسر إعطاؤه حتى على أواسط الناس، في حالة مجاعة أو مصيبة عامة لا يرى الناس فيها مواساة ظاهرة من المستبد، عقب حادث تضييق يوجب تظاهر قسم كبير من النساء في الاستجارة والاستنصار، عقب ظهور موالاة شديدة من المستبد لمن تعتبره الأمة عدوا لشرفها [الكواكبي ١٩٧٥: ٢٢٥-٢٢٦].

جان داية. الإمام الكواكبي: فصل الدين عن الدولة، دار سوراقيا، لندن، ١٩٨٨.
رحاب عكاوي. عبد الرحمن الكواكبي: السيد الفراتي، دار الفكر العربي، بيروت، ٢٠٠٣.
سامي الدهان. عبد الرحمن الكواكبي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠.
سعد زغلول الكواكبي. عبد الرحمن الكواكبي: السيرة الذاتية، بيسان، بيروت، ١٩٩٨.
سمير أبو حمدان. عبد الرحمن الكواكبي وفلسفة الاستبداد، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٩٢.
عبد الرحمن الكواكبي. «أم القرى»، في محمد عمارة (تحقيق). الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٥.
عبد الرحمن الكواكبي. «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»، في محمد عمارة (تحقيق). الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٥.
غسان العطية. معالم الفكر العربي الإصلاحي السلفي، دار الطبع والنشر الأهلية، بغداد ١٩٧٠.
محمد جاسم الساعدي. عبد الرحمن الكواكبي: رجل الكفاح والإصلاح، (سلسلة رواد التقريب ٩)، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، تهران، ٢٠٠٨.
محمد جمال طحان (تحرير). الرؤى الإصلاحية للمفكر النهضوي عبد الرحمن الكواكبي: قراءات معاصرة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٧.
محمد جمال طحان (تحقيق). الرحالة كاف: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لعبد الرحمن الكواكبي، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ٢٠٠٧.
محمد جمال طحان (تحقيق). أم القرى: مؤتمر النهضة الإسلامية الأول لعبد الرحمن الكواكبي، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ٢٠٠٨.
محمد عمارة (تحقيق). الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٥.
محمد عمارة. عبد الرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومجدد الإسلام، دار الوحدة، القاهرة، ١٩٨٤.
نزيه كبارة. عبد الرحمن الكواكبي: حياته وأصله وآرائه، مكتبة الحلبي الحقوقية، ترابلس، ١٩٩٤
Funatsu, R. 2006. "Al-Kawākibī's Thesis and its Echoes in the Arab World Today," *Harvard Middle Eastern and Islamic Review*, 7, pp. 1–40.
Raz, R. 1996. "Interpretations of Kawakibi's Thought, 1950–1980s," *Middle Eastern Studies*, 32, pp. 179–190.
Tapiéro, N. 1956. *Les idées réformistes d'al-Kawâkibî, 1265–1320=1849–1902: Contribution à l'étude de l'Islam moderne*. Paris: Les éditions arabes.